من عيون الأدب الغربي :

رحلات تشيلد هارولد لبيرون

للأستاذ بولس سلامة

— ٢ —

تمهيد :

استيقظ بيرون ذات صباح فاذا هو شاعر مشهور . كان ذلك غداة نشره المقطوعتين الأوليين من ديوانه « رحلات تشيلد هارولد » وفي هذه الأشعار وصف بيرون رحلته الأولى في أوربا حيث طاف بأسبانيا وروما واليونان فوصف المدائن البالية ورثى الدنيات الخالية وحنّ وأنّ وبكى واستبكى ، ولم يكن في كل ما كتب إلا واصفاً وناعياً نفسه المحطمة المنكوبة التي لم تحب الناس ولم يحبها الناس . نبذهم ونبذوه فراح يلتمس في وحدة البحر وحطام الدنيات البائدة عزاء لنفسه المحطمة الوحيدة . وفي المقطوعات التالية ترى وتسمع بيرون يودع بلاده ويرثي مجد اليونان ويصف البحر الواسع العميق .

الوداع :

وداعاً وداعاً يا شط بلادي ؛ أيها الشط المتوارى وراء خضاره . بين ولولة الرياح وعجيج الأمواج . وأنت أيتها الشمس الماثلة للغروب لك كما للوطن أقول وداعاً .

* * *

ولكن سوف يتنفس الفجر ، وتشرق الشمس من جديد على التلال والوهاد إلا أرض بلادي ؛ فقد غيبت فلا تعود . قيصري أقفرت عرصاته ، وموقدي خبت فيه النار ، واعشوشب المكان من حوله . أما كلبي فظل وحيداً ينبح عند الباب .

* * *

والآن غدوت وحيداً في العالم ؛ فوق هذا الخضم الواسع العميق ، ولكن قم حنيني إلى الناس ، وليس في الناس من حان علي، حتى كلبي سوف يطعمه الغريب. فاذا ماعدت تبحثي كالغريب . أيتها السفين الأمين ؛ شق طريقك في اليم كما تشائين ، وألق مرساتك في أي أرض . فلست أبالي وقد هجرت وطني أي أرض تقصدين ، وأنت أيتها الأمواج المتلاطمة مرحى مرحى فان غبت عن ناظري . فلتتبعن الصحاري والوهاد . وداعاً وداعاً يا أرض المهاد .

البحر :

أيها العباب الواسع العميق . تشق آلاف الأساطيل مياهك بلا نهاية ، والإنسان الذي يملأ الأرض ضجيجاً وذعراً يقف على شطك حاسراً ذليلا . فان تجاوز الشط ابتلعته أمواجك ، وغاب في قرارك بلا قبر ولا أكفان ولا مشيعين واحتواه نسيان عميق .

* * *

على سواحلك قامت الامبراطوريات ثم عفت ، وازدهرت الدنيات ثم اختفت . أين أشور ويونان وروما . داعبت أمواجك شطآنها وهي حرة تحكم . ولا تزال تداعبها وهي مستعبدة تُحكَم . والزمن الذي يغير كل شيء لم يغيرك ، ولم تعلُ جبينك الغضون . فأنت الآن كما كنت في فجر الخليقة فتى القلب غض الإهاب .

بعض اليونان :

يا بلاد يونان الجميلة : أيها الأثر الباقي لمجد خلا . نبيلة أنت في شقائك . خالدة أنتِ في فنائك ؛ من يقود أبناءك المشردين ؛ الذين طال مكوثهم في الأغلال . أين أولئك الأمجاد الذين وقفوا والموت في مضيق ترمبوليه . وقفوا كالسد أمام القاهر العادي . ليتهم يعودون إليك الآن . فينفخون فيك من بطولتهم الخالدة ، وينقلون أبناءك للحياة . أيها الراسفون في الأغلال : ليتكم تعلمون ، إن الذين يتطلعون إلى الحرب عليهم أن يحطموا أغلالهم بأيديهم ، وأن يعتمدوا في كسبها على سواعدهم لا على سواعد الآخرين فرنسيساً كانوا أو مسكوف . دعوا عنكم هذه الأوهام . فقد يعاونكم هؤلاء على توهين خصمكم ، ولكن حريتكم في يدكم . يا أشباح الذل كافحوا عدوكم وانتصروا . أي بلاد يونان تغيرت السادة وبقيت شقية ، وزالت عنك السيادة ولم تزل في كأس الذل بقية .

الخرطوم — سودان)

بولس سلامة